بسم الله الرحمن الرحيم

آية الكرسي

لعـــــالم كبير

((الله لا اله الا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، من ذا الذى يشــــفع عنده الا باذنه ؟ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه الا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يئوده حفظهما ، وهو العلى العظيم)) .

هذه الآية تعرف بين المسلمين بآية الكرسى ، وقد نوهت الســـنة النبوية بفضلها ومكانتها ، وتتكون من عشر جمل متصلة المعنى فى الحـــديث عن ذات الله وصفاته .

(١) ((**الله لا اله الا هو ..**)) ليس فى الوجود أحد يتجاوز مرتبة العبودية ، فكل ما عدا الله عبد له ، وهو وحده المتفرد بالألوهية فى الســـموات والأرض .

من قال عن نفسه أنه اله فهو كاذب ، ومن قال عنه الناس ذلك فهم عليه كذبة ، وقد تمر بالناس أعصار يتخذون فيها بعض الجمادات والدواب آلهة ، وهذه أعصار الانحطاط الذهني والنفسي التي نرجو أن يتم خلاص البشر جميعا منها .

ولكن الضلال الشائع الى اليوم اتخاذ بعض البشر الطيبين آلهة مع الله بحجة أنهم انبثقوا منه او أنه حال فيهم .

وقد حارب الاسلام هذه الضلة حربا شديدة ، وأكد أن البشر مستحيل أن يرتفعوا الى مصاف الآلهة ، وان الله العلى الكبير لا يمكن أن يهبط الى منازل البشر .

انه الاله الذى خلق غيره ، ومنحه الحياة ، وقام على أمره من المهد الى اللحد : ((**واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شـيئا وهم يخلقون . ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا**)) .

ورسول الاسـلام ــ وهو قمة البشرية ــ عنـدما يدعو الله يؤكد هذه الحقيقة : « اللهم أنا عبدك وابن عبدك وابن أمتك وفى قبضـتك . ناصيتى بيدك ماض فى حكمك ، عدل فى قضاؤك » .

(٢) ((**الحي القيوم ..**)) والأحياء من الخلق ليس لهم من انفسـهم ما يوجب الحياة ، ان الحياة عرض مفاض عليهم من خارج انفسهم .

وهو عرض يفارقهم يوما ولا يعود اليهم الا وفق مشيئة مفيضه جل شأنه ، الحى الذى لا بداية لحياته ولا نهاية ، فحياته وصف ملازم له أزلا وأبدا ، وذلكم الفارق بين حياة الخالق والمخلوق .

ومن ثم يقول الله لنبيه : ((**انك ميت وانهم ميتون**)) اما المتفرد بالحيـاة العظمى فهو الله .

ولما كانت هذه الحياة وضاحة نفاحة ناسب أن يجيء عقبها وصف القيوم اى الذى يمد الأكوان والخلائق كافة بحركاتها وسكناتها ، ويشرف اشراف أحاطة وهيمنة على شـئونها وأحوالها فهى أحوج ما تكون اليه وهو أغنى ما يـكون عنها ..

وقد ورد فى الآيات والآثار أن الله قائم على كل نفس بما كسـبت وأنه القيم على السموات والأرض ومن فيهن .

والقائم على الشيء ، والقيم عليه أو القوام عليه ، الفاظ تتفاوت فى الكشف عن هذه الاحاطة الشاملة لفنون التصريف والوان السيطرة على العالم .

ولكن لفظ القيوم جاء على هذه الصيغة فى المبالغة ، اشارة الى ـ من المستحيل أن يفلت زمام الامور من الخالق ، أو أن تسير فى وجهة غير ما تقضي ، اذ كل شيء يسـتند فى وجوده وبقائه وتقلبه الى هذا الوجود الأعلى : ((**أن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا ان امسكهما من احد من بعده**)) .

وهذه الجملة ــ الحى القيوم ــ أولى الجمل التسع التى ترادفت اشـبه بالاستدلال على الوحدانية المتقررة فى الجملة الاولى من آية الكرسى .

اذ هذه الأوصاف تنفى الشركة نفيا حاسما ، وتشـهد للبارى انه لا اله غيره .

(٣) ((**لا تأخذه سنة ولا نوم**)) السنة ما يخالط الاجفان من أوائل النعـاس ، والنوم هو الاستغراق التام .

والمراد أننا نحن البشر تدركنا ساعات غفلة نفقد فيها الشعور بأنفسنا وما حولنا .

بل نحن في ابان اليقظة يختلف انتباهنا ونشاطنا الذهني نحو ما نفكر فيه وما يحيط بنا .

وعند الكلال يضعف هذا الانتباه ، وتهن العزيمة ، وتكثر الأخطاء .

لكن رب العالمين لا يشغله شأن عن شأن ، ولا يغفل عن أمر في السماء لاهتمامه بأمر في الأرض ، ولا تلحقه عوارض الوهن والاعياء ، ولا تنفك قبضته الواعية عن ذرة في العرش أوالفرش لسهو او اغفاء ..

(٤) **((له ما في السموات وما في الأرض))** الله واســــع الملك . وما تقول في غنى يشمل آفاق السموات وفجاج الأرض .. ؟

ان العالم كله ، علوه وسفله ، ملك لله وحده .

والذين يظنهم الجاهلون شركاء لله ، ليس لهم في هذا العالم ذرة ، ان كانوا أصناما فما هي الأصنام .. ؟ تماثيل نحتها المصــــورون فهم في الحقيقة يملكونها ولا تملكهم .

ان كانوا بشرا ، فهؤلاء البشر ملك لمن صـــــورهم في الأرحام ، وجعل صدورهم تهبط وتعلو بالشهيق والزفير ، ولو شاء أن يقف دقات قلوبهم في أية لحظة من ليل أو نهار ما رده راد ..

ان هناك ملاكا على المجاز يضـــــعون أيديهم على بعض التراب ليرتفقوه حينا ، وربما طغوا بما يملكون ظاهرا ، ثم .. يجيئهم الموت فيدعون الحيـــــاة صفر الأيدي ، يدعونها لمالكها الحق الذي له ميراث الســـموات والأرض **((ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم))** .

(٥) **((من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه ..))** القاعدة العامة في الاســــلام أنه لا شفاعة لمشرك ، أو ملحد .

وانه لا حق لأحد من الملائكة او المرسلين يذهب به الى الله ليقول له اعف عن فلان أو اترك فلانا .

وان الاساس الأول للنجاة هو الايمان والعمل الصالح .

ولذلك قال الله تعالى قبل هذه الآية مباشرة : **((يا أيها الذين آمنوا انفقوا مما رزقناكم من قبل ان يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والـــكافرون هم الظالمون))** .

ويقول مخبرا عن مصاير المشركين والمجرمين **((انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من انصار))** .

ويقول أيضـــــا **((وأن تدع مثقلة الى حملهــــا لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى))** .

وقد يقع ــ لمن ينجون بأعمالهم ــ شيء من الفضل ترتفع به درجاتهم فوق ما يستحقون .

أو يقع ــ لمن قاربوا ولم يصلوا ــ شيء من العفو ينجحون به ولا يرسبون ويجعل الله السبب الظاهر في ذلك شفاعة المرسلين أو الصالحين .

وهي شفاعة لا ترجع الى ان هؤلاء المرسلين أو الصالحين يجيرون على الله أو ينقذون منه من يريد عقوبته ، كلا ، فما يجرؤ ملك ولا نبي على أن يقف من الله هذا الموقف .

انهم لا يشفعون الا باذنه ، ولا يشفعون الا لمن ارتضى .

قال تعالى : **« لا يسـبقونه بالقول وهم بامره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون »** .

« يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من اذن له الرحمن ورضى له قولا » .

وربما قال قائل : ولم هذه الشفاعة وما قيمتها ؟ والجواب انهـا لا تعدو لونا من اكرام الله فى الدار الآخرة لمن اهينوا بسببه فى الدنيا ، فيريد الله أن يصلح بالهم وأن يعلى قدرهم ، وأن يشعر عباده بما لهم عنده من مثوبة ومنزلة ، وأن يطوى قلوب المقصرين والمتأخرين على محبتهم واعزازهم لما سبق اليهم من فضل على ايديهم .

بيد أن الشفاعة المذكورة لا تهدم قواعد العدل ، ولا تعطل موازين الحساب ولا يحتاج اليها سابق بالخير ، ولا ينتفع بها مارق من الحق .

(٦) **« يعلم ما بين أيديهم وما خلفهـم »** ليس يخفى على الله شيء فى الأرض ولا فى السماء ، وعلم الأمس واليوم والغد عنده سواء . كأن العالم منذ خلق ، والى أن تبدل معالمه صفحة واحدة يستوى فيها القريب والبعيد والأول والآخر .

وذاك ـــ بداهة ـــ لأن الخالق يعلم ما خلق ، ولا يتصور أن احدا صنع من ورائه شيئا فيكون هو ـــ سبحانه ـــ جاهلا به .

ان الابداع ـــ وهو ابراز شيء من العدم ـــ لا يقدر عليه الا الله .

والتغيرات التى تحدث فى المادة ـــ وهو محور الأعمال البشرية ـــ لا تتم الا بأقدار الله ، ومن هنا كانت احاطة العلم .

ومن هنا كان معنى قولنا : ان الله لا يعلم هذا الشيء . ان هذا الشيء لا وجود له . اذ لو كان موجودا لعلمه حتما ، وهذا معنى الآيات الكريمة .

« ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل اتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون » .

ولقد تجول الفكرة فى خاطرى ـــ وكم يحمل تيار الشعور السـارى فى كيان المرء من خطرات ، وسوانح ـــ فأقول : ان الله يعلم هذه الخطرة المارة ، كما تمر السحب بالآفاق .

ثم اقول : وعلمه بها منذ أجيال !

واستتلى القول : وهو يعلم من غيرى مثل ما يعلم منى !

ومن غيرى ؟ الوف مؤلفة تزحم أرجاء العالم .

وعلمه يسع هؤلاء فى عصرنا . وما قبل عصرنا وما بعد عصرنا !!

وما يملك المرء وهو يتابع هذا التصور الا أن يهتف بالآية .

« ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم » .

(٧) **« ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء »** ينابيع المعرفة تنبجس ابتـداء من مشيئة الخالق ، حتى العلم بما يقع فى مجال السمع والبصر ، انه لولا ما ركب فى الانسان من عقل مدرك لماح ، ما استطاع أن يفقه مما حوله شيئا .

والاطلاع على ما هو أعمق من ذلك موكول الى مراتب الذكاء الانسانى ، وأنصبتنا من هذا الذكاء مقسومة علينا ونحن أجنة فى بطون الأمهات .

ومن هنا كان فتح نوافذ قليلة يطل منها العقل البشرى على آفاق من العلم محدوداً بما تهيىء المشيئة العليا من أسباب عادية أو غير عادية .

ومصادر المعرفة المعتادة مبثوثة فى كتاب الكون المفتوح ، وفى تجارب الناس مع الحياة العامة ، ويمكن بالوعى والتأمل والتجربة أن نبلغ آمادا بعيدة فى هذا المضمار دون حرج ودون قيد .

أما المعارف الغيبية التى مصدرها الوحي الاعلى ، فان الله قد اصطفى لها رسله الأولين وقد انتهى هذا المصدر بالرسالة الخاتمة .

ولن يحيط أحد بشىء من هذا العلم عن الاتصال بالله أو بملائكته ، ومن زعم ذلك فهو كاذب .

وقريب من ذلك الانباء بالغيوب ، فان هذا ليس من العلوم الميسرة ، للخلق حتى تتاح فرصها للبشر على سواء ، ولا مكان لوحى ينزل به بعد انقضاء النبوات .

ومن ثم فلا يقبل من أحد القول بأنه داخل ضمن الامكان العام فى قوله تعالى : ((**ولا يحيطون بشىء من علمه الا بما شاء**)) .

(٨) ((**وسع كرسيه السموات والأرض**)) .

المتبادر الى الأذهان أن السموات والأرض هما حدود الملك الالهى ، وهذا خطأ ، فانهما بعض آثار القدرة العليا فحسب ، وكذلك قال فى آية أخرى :

((**ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة**)) .

وقال : ((**ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره** ..)) .

هما من آيات الله ، وآيات الله الشاهدة بجلاله لا يحاط بها ، وكرسيه من الرحابة بحيث يسع السموات والارض وسائر ما لا نحصى من آيات .

ونحن لا ندرى ما الكرسى ؟ ولا نكلف باكتناه ذلك .

وكل ما ندركه من هذه الجملة هو ما توحى به من الاشراف الالهى العالى على سائر الخلق ، ما نرى منه وما لا نرى منه ، وأن السموات والأرض ما يستغرقان الا جزءا من الملكوت الواسع الذى اشتمل عليه هذا الكرسى ((**والله من ورائهم محيط**)) .

(٩) ((**ولا يئوده حفظهما**)) لا يتجشم أية مشقة فى ضبط السموات والأرض وتدبير الأمر بينهما ، كما أنه لم يتجشم أية مشقة فى الخلق الأول ، وهذا ما ذكره فى قوله ((**والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون**)) .

أى أن ذلك البناء شىء هين الى جانب ما فى وسعنا ، كما ينفق صاحب القناطير المقنطرة من الذهب والفضة فلوسا قليلة ، فلا يرى انه أعطى شيئا طائلا ، كذلك ــ ولله المثل الاعلى ــ بناء العالم وحفظه ، وما يتعب الخالق المدبر ، ولا يثقله ولا يرهقه ، لفرط عظمته .

والجملة السابقة فى وصف الكرسى تشير الى علو الذات . ولذلك جاءت الجملة الأخيرة .

(١٠) ((**وهو العلى العظيم**)) .

تذييلا يختم المعانى السابقة بذكر اسمين من أسماء الله الحسنى مناسبين للمقام ، مقام العلو والعظمة الواجبين لذى الجلال والاكرام .